بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الرابع عشر

٢٢ – ٢٥ شعبان ١٤٢٨هـ/ ٤ – ٧ أيلول ٢٠٠٧م

الحب مدخل الدين إلى النّفس الإنسانيّة لتأنيسها بالسّلم مع الذّات والغير وتجليات ذلك في القرآن الكريم: سورة البقرة نموذجاً

الأستاذ الدكتور عبد الكبير العلوي المدغري

عَمَّان – المَملكة الأُردنيَّة الهَاشميَّة

الحب مدخل الدين إلى النّفس الإنسانيّة لتأنيسها بالسّلم مع الذات والغير وتجليات ذلك في القرآن الكريم: سورة البقرة نموذجاً

أ.د. عبد الكبير العلوي المدغري

الحمد لله والصلاة والسلام على مولانا رسول الله،

أشعر بالسعادة والاعتزاز بالانتماء إلى أكاديمية آل البيت الملكية للفكر الإسلامي، هذا الصرح الفكري الشامخ الذي جمع نخبة من كبار المفكرين والعلماء والذي أسسه جلالة الملك الهاشمي الحسين بن طلال رحمه الله، ويرعاه خلفه جلالة الملك عبد الله الثاني ابن الحسين حفظه الله لخدمة الثقافة والفكر والحضارة والعلوم والفنون والآداب الإسلامية والإنسانية على أعلى مستوى.

وإنني إذ أشكر صاحب السموّ الملكي الأمير غازي بن محمد بن طلال المعظّم رئيس مجلس أمناء المؤسّسة، وأشكر عطوفة الأستاذ إبراهيم شبّوح مدير المؤسسة.

وأحيي السيدات والسادة الأعضاء الفضلاء، لأرجو أن أوفق في الرفقة وأنجح في الزمالة والصحبة وأسهم بجهدي المتواضع وزادي القليل في المسيرة الموفقة لهذه المؤسسة التي يزيدها انتسابها لآل البيت الأطهار شرفا ومكانة.

إن اختيار موضوع (الحب في القرآن الكريم) لهذه الدورة اختيار موفق وضارب في عمق الاهتمام بالمشاكل والقضايا الكبرى التي تعيشها أمتنا في هذه الحقبة الدقيقة من تاريخها .

إننا نعيش أجواء الحقد والكراهية والإرهاب والعدوان والشر المستطير الذي أصبح يتفجر ويفجر إنسان هذا العصر حروباً على المستضعفين في الأرض وسفكاً لدماء الأبرياء وتفجيراً بالسيارات المفخخة والأجساد البشرية الملغمة.

وإننا نتساءل كيف وصل إفلاس الفكر والحضارة والمدنية إلى هذا الحد ؟ ! وهل صحيح أن النفس الإنسانية خبثت وأظلمت إلى الحد الذي أصبحت معه مستنقعا للشر والغدر والإرهاب ؟ !

هل في أصول تربيتنا ومخزون تراثنا وقيمنا حب للإنسانية أم ليس فيها على الحقيقة إلا الحقد والكراهية ؟ ! .

هل في قرآننا حب ؟ !

وإذا كان في قرآننا حب فما حقيقته وما دلائله وما مداه ولماذا نصر على ما في قرآننا من جهاد وقتل وقتال بدل الإصرار على ما فيه من حب ؟ !

هل نستطيع إذا اهتدينا إلى الحب الكامن والمتجلي في القرآن أن نبني عليه تربية جديدة لأبنائنا ومجتمعاتنا ، ومنهجا جديدا لأمتنا ورسالة متجددة للمجتمع الإنساني ؟ !

* * *

من السهل علينا أن نتحدث عن الحب في القرآن الكريم ضمن جميع الفضائل والمكارم والمحاسن التي يعتقد كل مسلم أن قرآنه الكريم جاء لتمجيدها وتأصيلها والدعوة إليها ، ودون أن نجد في أنفسنا حاجة إلى إقامة الدليل على ذلك؛ بل دون أن نشك طرفة عين في اقتناع الآخرين ما دام أنه من باب تحصيل الحاصل عندنا أن هذا الكتاب العظيم المتضمن لكلام رب العالمين لا بد أن يكون للحب فيه نصيب وافر ومكان متميز وأن تكون رسالته رسالة حب واسع شامل نقي لمجرد أنه وحي السماء وكلام الخالق البارئ المبدع الرحمن الرحيم .

غير أننا سرعان ما تدب في أطرافنا قشعريرة الخوف ونحن نقرأ في سرنا وجهرنا بعض الآيات البينات التي تتحدث عن العذاب الأليم والعظيم والشديد والمهين والمقيم ونار جهنم ! .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٩] .

وسرعان ما نشفق إشفاقا كبيراً على صنف من إخواننا في الإنسانية ونحن نسمع القرآن العظيم يقول في حقهم:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٦٨-٧٢].

وتذكرنا آيات القرآن الكريم بما فعله عز وجل بالأمم من قبلنا: ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وتتجلى أمام أعيننا صور العذاب المتتالية في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٠- ٧٢].

ولا يمكن لمن تعوّد على قراءة القرآن أن يستحضر مشاهد الجحيم في القرآن الكريم دون أن يقشعر جلده ويحس بالرعب.

وكم بكينا ونحن نصلي في الحرم المكي الشريف لبكاء الإمام وهو يتلو بعض آيات العذاب إشفاقا من عذاب النار، وخوفا مما توعد الله به عباده الخارجين عن طاعته وطاعة رسله.

ولكم كنت أتعجب من والدي رحمه الله كلما لامني على ذنب ارتكبته وكلما حاولت تهدئة روعه بقولي: ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ فيجيب بقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨].

وكم تحدثت كتب التراجم عن أفراد لا يحصون من الصالحين كانوا يسقطون مغشيا عليهم عند قراءة أو سماع آية من آيات العذاب.

هذه الثقافة القرآنية القائمة على شدة الخوف من الله وعدم الأمن من مكروه والاغترار بعفوه مع استحضار مشاهد الجحيم والعذاب المقيم، لم يحسن كثير من الناس فهمها سواء من المسلمين أو من غيرهم من المستشرقين والمستغربين فشنعوا على القرآن من أجلها واستخرجوا منها صورا متجهمة شرسة لما سموه بإله المسلمين الجبار المنتقم المتكبر.

وأضافوا إلى ذلك أن الإسلام أراد أن يكون أتباعه على صورة إلههم (تخلقوا بأخلاق الله) فقتلوا وأحرقوا وسجنوا وعذبوا.

وأمام هذه الصورة القاتمة للقرآن نصبوا صورا ناصعة مشرقة للإنجيل، الذي لا يفتر عن الحديث عن الحب والذي يعتبر عيسى عليه السلام مخلصا ضحى بنفسه وقدمها للقتل فداء وخلاصا لسائر الخلق المطيع منهم والعاصي والبر والفاجر.

وبطبيعة الحال فإن هذا اللبس الحاصل في هذا الموضوع يجعل القلم يرتجف في اليد حين نحاول أن نكتب عن الحب في القرآن الكريم مستحضرين مشاهد العذاب وصورة الرحمن في جلاله.

ومع ذلك فسوف نحاول في هذا العرض أن نبحث في دلائل الحب في القرآن الكريم، وذلك ضمن تجليات الجمال الإلهي الذي يعتبر كتابنا العزيز مرآة له وتعبيرا عنه.

ومن حقنا أن نتساءل في البداية عن نوع العلاقة التي أرادها القرآن الكريم أن تكون بين الإنسان وخالقه، هل هي علاقة حب أم علاقة خوف ورعب؟

كما من حقنا أن نتساءل عن نوع العلاقة التي أرادها القرآن أن تكون بين الإنسان وأخيه الإنسان، هل هي علاقة محبة أم علاقة عداوة وكراهية، وبغض وسفك الدماء: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٍ﴾ [التوبة: ٥].

وهذا ما سنحاول إن شاء الله الإجابة عنه.

* * *

من المؤسف أن الفقهاء وعلماء تفسير القرآن الكريم لم يهتموا بالحب في القرآن الكريم كما كان الواجب يفرض عليهم أن يفعلوا؛ ولذلك لا تسعفك كتبهم في بحث هذا الموضوع، اللهم إلا ما كان من بعض الفقهاء والمفسرين الذين كان لهم طبع أدبي وميل فني، فتحدثوا عن الحب والمحبة شعرا ونثرا، مثل الفقيه الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي في كتاب طوق الحمامة في الألفة والأُلاف وأمثاله.

كما اهتم بالحب عموماً وبالحب في القرآن الكريم علماء وشيوخ التصوف وهذا وضع طبيعي لأن الحب أمر قلبي وشأن روحي نفساني.

غير أن حديث رجال التصوف عن الحب لم يسلم من الالتباس ببعض المفاهيم الفلسفية غير المقبولة مثل وحدة الوجود عند البعض ونظرية الحلول عند البعض الآخر، كما أنهم لم يسلموا من شطحات أخرجت الغلاة منهم عن حد الفهم الطبيعي وألقت بهم في الأوهام والخيالات البعيدة.

ولعل الصوفية أحق بفضل السبق إلى محاولة التعريف بهذا الجانب الجمالي في الدين.

وقد حاولوا تعريف الحب ووصف حال المحبين وجعلوا الحب مقاما بل غاية المقامات وهو مقام الأبرار العارفين بالله.

ومن خلال تعريفاتهم للحب والمحبة ندرك عمق انشغالهم بالموضوع وأن القرآن استطاع أن ينشر في أهل الذوق حلاوة الحب وهو في حد ذاته دليل على ما يزخر به القرآن في شأن الحب من معان وأسرار.

غير أن الحب الذي اشتغل به رجال التصوف لا يخرج عن المجال الديني بحكم أن المحبوب عندهم في البداية والنهاية هو الله عز وجل.

ولذلك وردت في تعابيرهم عنه كلمات الطاعة والخوف وما شابهها وغابت الكلمات التي توحي بالحب البشري إلا لماما.

ومع ذلك نستطيع أن نؤكد أن هذا الحب الإلهي الصافي النقي عمل عمله في صنع قلوب قابلة للحب البشري متعرضة للعشق في أبهى صوره وأجمل حالاته، ويكفي أن نقرأ ديوان محيي الدين بن عربي الحاتمي (ترجمان الأشواق) الذي تضمن قصائد رائعة في حب ابنة شيخه التي شغفته حباً ، وكان يسميها في شعره باسمها (النظام) واعترف في مقدمة ديوانه أنه في عشقها نظم شعر الديوان.

ولقد أسهب رجال التصوف في التعبير عن حب رسول الله ﷺ نثرا وشعرا، فتجمع من ذلك رصيد إبداعي نفيس نعتبره من أجمل النصوص الأدبية في الأدب الإسلامي والإنساني المتعلق بالحب.

كما كان لشيخ الطريقة نصيب وافر في تلك الأدبيات ثم اتسع الحب عندهم ليشمل المريدين وفقراء الطريقة ثم جماعة المؤمنين ثم جميع الخلق والكائنات.

فالحب عند الصوفية مثل المصباح المضيء الذي يشع بنوره على الكون مستمدا من مشكاة الألوهية معبرا بأسلوب الوحي فياضاً من بحر الجمال.

وهذا الحب الكبير الزاخر المشع بأنواره الباهرة والذي ذاقه هؤلاء القوم في رحاب القرآن، يشكل دليلا آخر على أثر القرآن في نشر ثقافة الحب بين الناس وأنه يحتاج فقط إلى أهل الذوق وأصحاب القلوب الصافية والنفوس النقية.

لقد جعل الصوفية الحب الإلهي ثمرة التصوف وهو (الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات، فما بعد المحبة مقام إلا هو ثمرة من ثمراتها وتابع من توابعها، كالشوق والأنس والرضا . . ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد)[1] .

وحاولوا تعريف الحب أو المحبة بتعاريف مختلفة وإن اعترفوا بأن المحبة لا يعبر عنها حقيقة إلا من ذاقها " ومن ذاقها استولى عليه من الذهول على ما هو فيه أمر لا يمكنه معه العبارة. . .

[1] الإحياء للإمام الغزالي كتاب المحبة والشوق ج ٣ ص ٢٥٧٠ .

يصحو من الخمر شاربوه والعشق سكر على الدوام[1] "

ومن تلك التعاريف هذا التعريف الجميل الذي ذكره الشيخ سيدي أحمد بنعجيبة: "المحبة ميل دائم بقلب هائم" .

وشرح هذا التعريف بما يدخله في مجاله الرباني بقوله: " ويظهر هذا الميل أولاً على الجوارح الظاهرة بالخدمة وهو مقام الأبرار، وثانياً على القلوب الشائقة بالتصفية والتحلية وهو مقام المريدين السالكين، وثالثا على الأرواح والأسرار الصافية بالتمكين من شهود المحبوب وهو مقام العارفين"[2] .

وجاء في تعريف الشيخ زروق للمحبة:

" المحبة أخذ جمال المحبوب بحبة القلب"[3] .

غير أن رجال التصوف وإن اشتهروا بذوقهم الجميل في الحب والمحبة فإن ممارسة الحب والمحبة في الحياة والواقع لم تقتصر عليهم، ويمكننا أن نسجل ونحن في غاية الاطمئنان والثقة أن الأمة التي صنعها القرآن كانت أمة حب ومحبة، ولا يؤثر على هذا الحكم ما عرفه تاريخ الأمة من حروب وجهاد ومعارك والتي كانت لها مبرراتها وظروفها مثلها مثل جميع الأمم والشعوب.

ويكفي أن ننظر في التراث الذي أنتجته هذه الأمة لنجده زاخرا بألوان من التعبير الفني شعرا ونثرا وموسيقى وغناء من الوجدان الفردي والجماعي الذي عاش الحب بجميع أشكاله وألوانه في ظلال القرآن الذي كانت الأمة تتلوه آناء الليل وأطراف النهار .

وإذا كانت اللغة هي مرآة أهلها فإن في فقه اللغة العربية التي هي لغة القرآن ولغة أمة القرآن ما يعكس عمق الشعور بالحب لدى أهلها ، وأسوق هنا مثالا من كتاب (بدائع الفوائد) لابن قيم الجوزية يدل على أن الحب دخل في صناعة اللغة بشكل يدعو إلى الإعجاب .

[1] حقائق عن التصوف للشيخ عبد القادر عيسى ص: ٣١٨ .

[2] كتاب خمس سلسلات نورانية فريدة من تأليفه جمعها وقدم لها السيد العمراني خالدي عبد السلام.

[3] كتاب نخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب ص: ٢٤٣ .

يقول ابن القيم في فصل فيما يؤكد من الأفعال بالمصادر وما لا يؤكد: مبحث في قولهم أحببت: " وأما مجيئه أي الحب بالضم دون الفتح فكثير في ذلك وهو قوة هذا المعنى وتمكنه من نفس المحب وقهره وإذلاله إياه حتى إنه ليذل الشجاع الذي لا يذل لأحد، فينقهر لمحبوبه" ويستأسر له كما هو معروف في أشعارهم ونثرهم وكما يدل عليه الوجود، فلما كان بهذه المثابة أعطوه أقوى الحركات وهي الضمة فإن حركة المحب أقوى الحركات فأعطوا أقوى حركات المتحرك أقوى الحركات اللفظية ليتشاكل اللفظ والمعنى، فلهذا عدلوا عن قياس مصدره وهو الحب إلى ضمه، وأيضا فإنهم كرهوا أن يجيئوا بمصدره على لفظ الحب الذي هو اسم جنس المحبة، ولم يكن بد من عدولهم إما إلى الضم أوإلى الكسر، وكان الضم أولى لوجهين: أحدهما قوته وقوة الحب، والثاني أن في الضمة من الجمع ما يوازي ما في معنى الحب مع جمع الهمة والإرادة على المحبوب، فكأنهم دلوا السامع بلفظه وحركته وقوته على معناه. وتأمل كيف أتوا في هذا المسمى بحرفين، أحدهما الحاء التي هي من أقصى الحلق مبدأ الصوت، ومخرجها قريب من مخرج الهمزة من أصل المصدر الذي هو معدن الحب وقراره، ثم قرنوها بالباء التي هي من الشفتين وهي آخر مخارج الصوت ونهايته، فجمع الحرفان بداية الصوت ونهايته، كما اشتمل معنى الحب على بداية الحركة ونهايتها، فإن بداية حركة المحب من جهة محبوبه ونهايتها إلى الوصول إليه، فاختاروا له حرفين هما بداية الصوت ونهايته، فتأمل هذه النكت البديعة تجدها ألطف من النسيم ولا تعلق إلا بذهن يناسبها لطافة ورقة:

فقل لكثيف الطبع ويحك ليس ذا بعشك فأدرج سالما غير غانم

واشتقاقه في الأصل من الملازمة والثبات من قولهم أحب البعير فهو محب إذا برك فلم يثر، قال:

حلت عليه بالقطيع ضربا ضرب بعير السوء إذا أحبا

فلما كان المحب ملازما لذكر محبوبه ثابت القلب على حبه مقيما عليه لا يروم عنه انتقالا ولا يبغي عنه زوالا قد اتخذ له في سويداء قلبه وطنا وجعله له مسكنا :

تزول الجبال الراسيات وقلبه   على العهد لا يلوي ولا يتغير

فلذلك أعطوه هذا الاسم الدال على الثبات واللزوم . . . . [1] .

ولنرجع إلى الحب في القرآن الكريم وإلى التساؤل عن نوع العلاقة التي أرادها القرآن أن تكون بين الإنسان وخالقه، هل هي علاقة حب أم علاقة خوف أم علاقة طمع ؟

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الأعراف: ٥٦] .

ويقول عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] .

ويقول: ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٠] .

ومثل آيات الخوف آيات الخشية:

﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤] .

﴿ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٣] .

وقد نشأت فعلا بين الناس وبين الله علاقة خوف وطمع، خوف من غضبه وعقابه وطمع في إحسانه وجنته إلا أن هذه العلاقة على ما يشوبها من نقص من جهة العباد فإنها لا تخلو من الحب المتبادل . فمثل العباد هنا كمثل الأبناء الذين يخافون آباءهم ويطمعون فيما بيده من العطاء ولكنهم يحبونه حبا لا شك فيه ولا شبهة، وكذلك الأب يضرب أولاده ويخوفهم ويعاقبهم أشد العقاب وهو يحبهم ويحنو عليهم، ولله المثل الأعلى .

(١) كتاب بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ٢/٧٨ .

وكانت النفوس الكبيرة تتوق دائما إلى حب الله لجلاله وجماله ومحامد صفاته كما تحبه الملائكة، وتعبده لكماله لا خوفا من عذابه ولا طمعا في جنته. وكأنها اخترقت حجب الخوف والطمع واعتبرتهما غير مقصودين لذاتهما واتجهت إلى المقصود الحقيقي وهو الله.

فما مقصودهم جنات عدن ولا الحور الحسان ولا الخيام
سوى نظر الجليل وذا مناهم وهذا مقصد القوم الكرام

وفي هذا المعنى قالت رابعة العدوية رحمها الله:

كلهم يعبدون من خوف نار ويرون النجاة حظاً جزيلاً
أو لكي يسكنوا الجنان فيحظوا بكؤوس ويشربوا السلسبيلا
أو يقيوا بين القصور جميعا أنا لا أبتغي بحبي بديلا

واعتبر العارفون ما دون ذلك حب العوام وعبيد السوء الذين يحبون ويعملون للأجرة والنفقة والخوف فيزيد حبهم وينقص بزيادة الإحسان ونقصانه[1].

فالحب حبان حب الخواص وهم العارفون بالله، وحب العوام وهم بقية عباد الله وهؤلاء عباد صالحون مرضيون وليسوا عبيد سوء لأنهم يطمعون في عطفه وإحسانه ويخافون من غضبه وعقابه، ولكنهم يحبونه في الخوف والرجاء حبا لا سبيل إلى إنكاره.

وقد اختار القرآن الكريم أسلوبين للتعبير عن دلائل الحب فيه:

الأسلوب الأول: تعبير بالشواهد الخاصة وهي التعابير الصريحة التي جاءت بلفظ الحب صراحة أو لفظ الرضا ولفظ الإنعام والتقريب وغيرها من الألفاظ التي تفيد الحب وذلك مثل قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

[1] كتاب نخبة المطلوب من شرح مطهرة القلوب ص:٢٤٣.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[المائدة:٥٤].

وقوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ ﴾[البقرة: ١٦٥].

وقوله سبحانه: ﴿ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ﴾[طه: ٣٩].

كما أن القرآن يذكر بوضوح الأصناف من الناس الذين يحبهم الله عز وجل مستعملا لفظ الحب الصريح الواضح في التعبير عن ذلك مثل قوله تعالى:

﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[البقرة: ١٩٥].

وقوله: ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: ٧٦].

وقوله سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[آل عمران: ١٤٦].

وقوله عز وجل: ﴿ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾[المائدة: ٤٢].

كما استعمل القرآن ألفاظا أخرى كما أشرنا إلى ذلك للدلالة على نفس معنى الحب مثل لفظ الرضا في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾[المائدة: ١١٩].

وقوله سبحانه: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾[التوبة: ١٠٠].

وقوله تعالى في حق إسماعيل: ﴿ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٥].

كما استعمل القرآن لفظ النعمة وتمامها في مثل قوله سبحانه:

﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦].

وقوله في حق يوسف عليه السلام: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦]. وبالطبع فإن النعمة لا تكون تامة على العبد إلا إذا كان محبوباً.

كما استعمل القرآن لفظ التقريب للتعبير عن المحبوبية عنده سبحانه في مثل قوله:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠– ١١].

وقوله: ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾[المطففين: ٢٧– ٢٨].

وقوله في حق عيسى عليه السلام: ﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥].

وبالإمكان أن نضيف جميع الأصناف الذين بشرهم الله بالجنة ونعيمها المقيم بل إن من أشرف الألفاظ الدالة على الحب في القرآن الكريم لفظ العبد والعباد:

﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ [ص: ٣٠، ٤٤].

﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الزخرف: ٥٩].

﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣].

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ [الزمر: ١٠].

وإذا شئت أن تدرك ما في لفظ العبد والعباد من الحب فاقرأ الآيات التي يخاطب الله فيها الإنسان بهذه الصفة لتجد فيها من الثناء والرضا والقرب والخصوصية ما يدل على الحب السابغ والاعتبار البالغ.

وأما الأسلوب الثاني في التعبير في الاستعمال القرآني فهو أسلوب الشواهد العامة والتي تفيد أنواع العناية والرعاية والألطاف الظاهـرة والخفية والتسخير والتدبير والنعم التامة الشاملة ابتداء من أمر الملائكة بالسجود لآدم وانتهاء بالخلود في الجنة.

ونضرب المثل هنا على هذه الشواهد العامة من خلال قراءة تأملية سريعة في سورة البقرة نموذجا لما تلاها من سور القرآن لاستجلاء دلائل الحب وشواهده في القرآن الكريم معتمدين على ما توحي به آياتها وكلماتها وحروفـها في الظاهـر والباطـن من معان وإيحاءات مكتفين بما سيفتحه الله علينا في فهمها دون رجوع إلى كتب التفسير وأقوال العلماء باحثين عن الشعور القلبي بالحب في رياضها غير آبهين بمخالفة المخالف الذي احتكم إلى قواعد العلم وضوابطه والتزم بأقوال السلف في تأويلاته.

قراءة في سورة البقرة

في اعتقادنا أن القرآن يقصد غرس الفضائل والكمالات عن طريق خلق الأجواء النفسية والأحوال الوجدانية والأوضاع القلبية الملائمة. وهكذا فبالنسبة للحب فإن القرآن يتحدث عن أشياء لا علاقة لها بالحب ظاهرا ولكنها في النهاية تشكل عوامل متكاملة متضامنة من شأنها أن

تخلق ذلك الجو النفسي الذي يسمح بنشوء الحب وتمكنه من القلب وخلوصه لله عز وجل ثم انتشاره ليشمل الإنسان وجميع مخلوقات الله.

ولذلك فإن القرآن لا يطلب منك بطريقة مباشرة أن تحب، ولا يتحدث إليك عن الحب بعبارات صريحة، ولا يخاطبك بخطاب ظاهر مكشوف، ولكنه يجعلك في النهاية تشعر بالحب كيف حدث لك ذلك ومتى وقع؟ هذا ما لا تستطيع التعبير عنه!!.

وقد اخترنا سورة البقرة لنحاول أن نقترب من هذه الطريقة العجيبة التي يسلكها القرآن، ونكتشف نوع الأجواء النفسية التي تخلقها هذه السورة الكريمة وهل هي بالفعل أجواء مساعدة على نشأة الحب وارتقائه واكتماله واتساعه وانتشاره.

وهي فكرة راودتنا ونحن نستعد للكتابة في موضوع الحب في القرآن الكريم ونحن نعلم أن القرآن لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد وأنه حمال أوجه، ونعلم أنك قد تقرأ سورة البقرة فتكشف أنها أنزلت فقط من أجل تبليغ رسالة التوحيد والحب، ثم تقرأها قراءة أخرى فتجد أنها لم تنزل إلا في الجهاد وتثبيت المؤمنين ودحض حجج الكافرين وتخويفهم بالعذاب الأليم؛ ثم تقرأها قراءة ثالثة لتجد أنها جاءت لبيان أصول الدين وأصول الفقه وأحكام الصيام والزكاة والحج وغيرها.

وهذه حال القرآن كله، بحر زاخر ما زال الناس يستخرجون منه نفيس اللؤلؤ والجوهر وما شاء الله من الكنوز التي لا يصفها وصف ولا يحصيها عد.

تبدأ سورة البقرة بالإشارة إلى أن الكتاب فيه هدى للمتقين [الآيات من ١- ٤] ثم تعرض صورا من إحسان الله تعالى لعباده بقوله: ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ [الآية ٢٢].

وهذا فيه من التودد للبشر ما لا يخفى، ثم يشرق فضاء القرآن بمشاهد الجنة ونعيمها وهي تدل على حب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات [الآية ٢٤] حين ادخر لهم ذلك المصير الممتع

السعيد ثم تستمر السورة في التذكير بنعم الله على عباده: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [الآية ٢٩].

وإنه لم يكرم أحدا من خلقه كما كرم الإنسان، ولا أدل على ذلك من أنه جعل الإنسان خليفته في الأرض، وأمر الملائكة بالسجود له، وأفاض عليه من علمه حين علمه الأسماء كلها، ثم أباح له الجنة ليأكل منها رغدا حيث شاء [الآية ٣٥]، وهذه دلائل على حب الله لهذا الإنسان حبا لا يحيط به الوصف.

ثم يقع من الإنسان ما يوجب طرده من الجنة رغم محبوبيته، وتأتي مع الطرد عبارة شديدة غليظة تندر بعقاب الله لآدم وذريته بحرمانهم جميعا من طعم الحب ونشر العداوة والبغضاء فيما بينهم إلى يوم القيامة: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الآية ٣٦].

ولكن الحب الذي خوله الله تعالى لهذا الإنسان تغلّب فحلت التوبة محلّ الغضب وتبدلت العداوة التي كانت ستكون قائمة بين بني آدم إلى يوم القيامة إلى الهداية، وتحولت من: ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الآية ٣٦] إلى: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الآية ٣٨].

وقدمت السورة بني إسرائيل نموذجا للقوم الذين توالى إحسان الله إليهم وعفوه عنهم رغم إصرارهم على الكفر والفسوق والعصيان.

فقد أنجاهم الله من آل فرعون، وفرق بينهم البحر، وأغرق آل فرعون وهم ينظرون، ثم اتخذوا العجل وهم ظالمون، ثم عفا عنهم وتاب عليهم، ثم قالوا لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة، ثم بعثهم الله من بعد موتهم لعلهم يشكرون، بل أغدق عليهم من نعمه وأظل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ورزقهم من الطيبات، وإذا بهم رغم ذلك كله يعصونه حين أمرهم أن يدخلوا القرية ويقولوا حطة: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ [الآية ٥٩].

ومع ذلك أنعم الله عليهم بالماء حين قال لموسى اضرب بعصاك الحجر: ﴿ فَٱنفَجَرَت مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗا ﴾ [الآية ٦٠]. فكثرت عليهم النعم: ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ [الآية ٦٠].

ثم أبوا إلا أن يكونوا معاجزين وطلبوا من موسى أن يدعو ربه ليخرج لهم: ﴿ مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ [الآية ٦١]، مع أن ما أتاهم الله من النعم خير من ذلك فاستجاب الله لهم وأتاهم ما سألوا ليستيقنوا أنهم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير. وليس هناك إنعام ولا تكريم لبني إسرائيل أكبر من قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الآية ١٢٢].

ومع ذلك كله استمروا على كفرهم بآيات الله وقتلهم النبيين بغير حق وعصيانهم حتى استحقوا ما نزل بهم: ﴿ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الآية ٦١].

إن المتأمل في هذا النموذج يجد نفسه في جو يعبق بالعفو والرحمة والإحسان والإنعام والتكريم فيحب الله من أجل ذلك ويستصغر ويحتقر القوم الذين كفروا بأنعمه ويرى ما نزل بهم من عقاب عدلاً في حقهم وقليلاً بالقياس إلى جرمهم.

وتستمر السورة في تعزيز ذلك الجو النفسي السليم العطر حين يقع التذكير بفضل الله ورحمته [الآية ٦٤] والتحذير من قسوة القلب [الآية ٧٤] وسفك الدماء وتشريد الآمنين من ديارهم [الآية ٨٤] والاستكبار وتكذيب الرسل وقتلهم [الآية ٨٧] والتأكيد على أن القرآن أنزله الله على قلب نبيه هدى وبشرى للمؤمنين [الآية ٩٧] وخيراً وفضلاً عظيماً من الله ورحمة اختص الله بها من شاء من عباده [الآية ١٠٥] وأن الإنسان ليس له من ولي ولا نصير إلا الله سبحانه الذي له ملك السماوات والأرض [الآية ١٠٧].

ثم تنتقل بنا سورة البقرة إلى جو نفسي من نوع آخر يقوم على الترفع عن الحاسدين والكافرين والمخالفين. فيرشد المؤمنين إلى العفو والصفح ثقة بالله حتى يطهر قلوبهم من أي نوع من الكراهية والبغض: ﴿ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الآية ١٠٩].

إن القرآن في هذا الجو النفسي يغرس في نفس المؤمن الثقة بالله والاطمئنان إلى قوة الحق فلا يكترث بمن يخالفه، ولا يحقد على من يعارضه، ولا يفتن بما حوله، بل ينتظر في يقين كامل رجوع الناس إلى ما يؤمن به برجوعهم إلى الحق الذي لا مفر من الرجوع إليه.

وهكذا في خضم الصراع بين أتباع الديانات وتكذيب بعضهم بعضاً وحرب بعضهم لبعض، وهدم مساجد الله والسعي في خرابها، يقف المؤمن منزها نفسه عن ذلك تاليا قول الله تعالى: ﴿ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ [الآية ١١٣] وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الآيات من ١١٩– ١٢٠].

وبطبيعة الحال فإن هذا الجو النفسي من شأنه منح التوازن النفسي والاعتدال في الطبع والهدوء والطمأنينة وهي عناصر ضرورية في نشأة الحب واستمراره.

ويتعزز ذلك الجو النفسي بما يغرسه القرآن في نفس الإنسان من خلال هذه السورة من حب الأمن والسكينة والطهر وصفاء عقيدة التوحيد وسلامة الإسلام إلى الله عز وجل والاجتماع على عبادته، ويظهر ذلك بشكل أوضح في الآيات (١٢٤–١٤٠) التي تحدثت عن البيت الحرام بيت المثابة والأمن، ودعاء إبراهيم وإسماعيل وهما يطهران البيت للطائفين العاكفين والركع السجود

ويضعان قواعده، ووصية إبراهيم لبنيه ويعقوب. وتتوج ذلك كله تلك العروة الوثقى التي تجمع المؤمنين جميعا في أسرة واحدة تنشر بينهم المودة في القربى الإيمانية وتمحو كل خلاف أو صراع أو عداوة بينهم في قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [الآية ١٣٦].

وهذه صبغة الله أي فطرته، والوضع الطبيعي. وإنه لمما يدعو إلى الدهشة، دهشة الإعجاب والتعظيم أن هذه الصبغة التي لا صبغة أحسن منها حين تصطدم بمن يتولى عنها ولا يهتدي إلى قيمتها، ويقع في فتنة الخلاف حولها فإن العلاج الذي جاء به القرآن ليس هو الكراهية لهذا الصنف من الناس ولا حمل سيف الحرب عليهم وإنما هو الإعراض عنهم اكتفاء باقتدار الله عليهم وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الآية ١٣٧].

وتنتقل بنا سورة البقرة إلى موضوع تحويل القبلة في الآيات (١٤٢-١٥٦) وفيها تثبيت للنبي ﷺ وللمؤمنين على القبلة التي اختارها لهم الله عز وجل، وتأكيد على وجوب الثبات على هذه الوجهة وجهة الرضا ووجهة الحق ووجهة الأمة الوسط التي هي الأمة الخيار: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وبعد هذا التثبيت يأتي الأمر باستباق الخيرات في إطار تدافع الحضارات وتنافس الأمم، مع الثقة بالله وخشيته وحده وعدم خشية غيره، ومع الصبر والمداومة على الصلاة في خضم الصراع الرهيب الذي كله ابتلاء بالخوف والجوع ونقص في الأموال والأنفس الثمرات، والذي سوف ينتهي بأمة المؤمنين إلى تمام النعمة وكمال الهداية.

وفي اعتقادي أن هذا الجو النفسي الذي تتحدث عنه هذه الآيات هو جو المجتمع الذي بعضه أولياء بعض، مجتمع الجسد الواحد، مجتمع النصرة، مجتمع التوجه، وفي الأخير لا شك أنه مجتمع المحبة.

ونصل في نفس السياق إلى الآية التي أفضل أن نسميها آية الحب، وكأن ذلك الحب الذي يحتجب وراء أستار من المعاني والإشارات والتلميحات والتورية هتك الحجب مرة واحدة وأشرق نوره كشمس الصباح وملأ الدنيا ضياء وجمالاً.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [الآية ١٦٥].

إنه الحب القوي الشديد الذي لا يحب مع المحبوب أحداً.

وقد جاءت آية الحب هذه في سياق التأكيد على وحدانية المحبوب وهو الله، واستحقاقه للحب بما دلت عليه قدرته وعجيب صنعه في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وعظيم تدبيره في إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض بعد موتها، وبديع تصريفه للرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض.

مثل هذه الآيات في تمجيد الله والتنبيه إلى آياته، والمن على الناس بنعمه التي لا تحصى وتحذير الإنسان من مغبة الغفلة عن ذلك باتباع خطوات الشيطان هي كلها بمثابة دعوة إلى حب هذا الخالق البارئ المصور وأنه لا أحد من دونه يستحق أن يختص بالحب سواه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [الآية ١٦٥].

وقد جاءت الآيات بعدها في تبكيت الكافرين والسخرية منهم لأنهم ضلوا وأضلوا، ثم عادت الآيات لتبين للناس أن الوجه والقلب والفكر والعقل والوجدان والضمير ينبغي أن يتجهوا إلى جهة واحدة هي الله سبحانه وتعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ [الآية ١٧٧] إيماناً به وطاعة لما يريد وهو الحب الصادق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الآية ١٧٧]. وتمضي الآيات في ترتيب أحكام القصاص والوصايا والصيام مشيرة في غضون ذلك إلى المعروف والإحسان

والتخفيف والرحمة والخير والحق والغفران والهداية واليسر، ثم تقف في روضة تعبق حبا وقربا وتوددا وبراً: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [الآية ١٨٦].

دعوة أخرى إلى حب الله وتقديم نفسه سبحانه بالقريب المجيب لدعاء المحتاج والمظلوم والخائف والفقير والغني والرجل والمرأة طالبا منهم بكل لطف وعناية ومودة وبر أن يتجهوا إليه ويطلبوا قربه ويمشوا نحوه ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى ﴾ [الآية ١٨٦] وهو طريق الإيمان والرشد.

وتنتقل بنا سورة البقرة إلى بيان أحكام الصوم وأحكام الجهاد والحج مؤكدة على ثلاثة أمور أساسية أولها التقوى، وثانيها ذكر الله، وثالثها الدخول في السلم. وبطبيعة الحال فإن من أحب شيئا أكثر من ذكره والله تعالى يقول: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [الآية ٢٠٠]، وهي دعوة إلى حب الله كما أن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [الآية ٢٠٨]، دعوة إلى حب الحياة وحب الأحياء فالدخول في السلم مع النفس ومع الناس ومع الكون ومع الله ثمرته الحب.

ثم نصل إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [الآية ٢٢٢]، ثم وبعد جولة طويلة في أحكام الفروع تأتي قاعدة أساسية من قواعد الحب الإلهي في قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [الآية ٢٣٨].

فالصلاة والقيام لها والقنوت فيها تعني الصلة الدائمة بالله وتعلق القلب به واستحضار كمالاته وصفاته والمداومة على ذكره والنزول عن كل شيء من أجله واستصغار كل شيء بجانبه وهو خلاصة الحب وحقيقته.

ثم تأتي آية العرش أو آية الكرسي تتويجا لكل ما سبق من الأوصاف والنعوت في حق الله عز وجل فيتحدث سبحانه عن نفسه كما هو في جلاله وجماله وكماله لتقوم الحجة على من آمن بغيره أو

أحب سواه، فهو بهذه الأوصاف والكمالات أحق بالحب وأولى بتعلق القلب والخضوع والعبادة والانصياع.

ثم يبين الله أن ذلك لا يكون بالإكراه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ [الآية ٢٥٦]، وأنه تعالى يخرج الذين أمنوا من الظلمات إلى النور بإذنه ورحمته وفضله حبا فيهم وإحسانا إليهم.

ومع أنه وحده سبحانه وتعالى الذي يحيي ويميت فإنه يرشد عباده إلى حب المساكين وحب الناس أجمعين والإنفاق في وجوه الخير بدون منٍّ ولا أذى ولا استغلال لذوي الحاجة، وعدم إقراضهم بالربا وهي آيات من شأنها أن تنشر المودة بين الناس وتغرس المحبة في القلوب.

ثم نصل إلى خواتم سورة البقرة ويتضح من خلالها حال المؤمنين الذين يتحابون فيما بينهم، وهم الذين يؤمنون بإله واحد ولا يفرقون بين أحد من رسله ويسمعون ويطيعون أمر الله كما تتضح من خلالها حال الإله المستحق للحب.

وهو الغفار الذي لا يكلف نفسا إلا وسعها، ولا يؤاخذ الإنسان بنسيانه أو خطئه ولا يحمل عليه الإصر، ولا يحمله ما لا طاقة له به، ويعفو عنه، ويغفر له، ويرحمه ويتولاه وينصره.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه آمين.